المحاضرة الثانية: عوامل نشأة النقد العربي الحديث

إن اقتصار العملية النقدية على الذوق الفطري غير المعلل، وغيره من الأحكام الانطباعية الأخرى لا يعمل على تطويرها ولا يضفي عليها تحديثا، وإنما تبقى حبيسة النظرة الواحدة، التي لا تهدف إلى خدمة الأدب والنقد، وعليه اتخذ النقد مع عصر النهضة طابعا جديدا شهد له في ذلك نشاطا ملحوظا.

والمتتبع لنشأة النقد الأدبي الحديث من الناحية المكانية والزمانية يجد أن "عز الدين الأمين" حدد البلاد المصرية أول منشأ مكاني له، وليس من العبث أو التلقائية في اختياره هذا، وإنما كان على أساس النشاط والسعة والعمق والتنظيم النسبي، كل هذا كان في مصر أوضح منه في أي بلد آخر، على الرغم من وجود مظاهر النقد الحديث في كثير من الأقاليم العربية كالشام مثلا عند قسطاكي الحمصي في كتابة «منهل الوراد في علم الانتقاد»، وغيرها.

وتحديد مصر بالذات يعود لعوامل عدة سنفصل فيها لاحقا، أما من الناحية الزمنية فتتحدد الفترة من أواخر ق 19 إلى نهاية الربع الأول من ق 20، إذ يرى بأن هذه الفترة كافية لتحديد أسس النقد الحديث عند نشأته. [1]

عوامل نشأة النقد العربي الحديث:

1/حملة نابليون على مصر:

إذا ما تعلق الأمر بالجانب العقلي الأدبي، فإن الحياة الأدبية قد شهدت تطورا ملحوظا بمجيء نابليون بونابرت، وإسهاماته الباهرة، فمن أهم المنشات نجد "المجمع العلمي المصري"، الذي عمل بونابرت على تأسيسه على غرار المجمع العلمي الفرنسي سنة 1798، حيث انقسم إلى أربعة أقسام، قسم الرياضيات وقسم الطبيعيات، وقسم للاقتصاد السياسي وقسم الآداب والفنون، وكان يشرف على كل قسم (12) عضوا، حيث اتضح أن المهمة القصوى التي أنيطت للمجمع هي مناقشة الكثير من الأبحاث الرياضية والطبيعية والأدبية، ونشرها في مجلة خاصة بالمجمع.

وعليه فقد عملت جل هذه الأبحاث على يقظة ونهضة مجمع القراء. كما انشأ نابليون مسرحا للتمثيل، وكانت تمثل على خشبة المسرح كل عشر ليال رواية فرنسية، يحضرها عرب وفرنسيين، و هذه الروايات الممثلة ألهمت عرائس الكتاب العربي لغة الحوار، وتعاقب الأحداث وأنواع الشخصيات، والصراع، وغيرها من التقنيات التي تعد زادا قويا ومحورا أساسيا لكتابنا العرب في مجال الحكي.[2]

ومن المرافق الثقافية الهامة التي تمثل مركزا من مراكز الإشعاع الثقافي «المكتبة»، كأرضية خصبة تتلاقح فيها وتتزاوج الثقافات عن طريق المحاورات والمساجلات والمناقشات الجادة ،وهذه المكتبة قد فتحت أبوابها لأبناء العرب والفرنسيين على السواء، إذ

---

[1] ينظر: عز الدين الأمين، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، دار المعارف بمصر، ط2، 1390ه/1970م، ص8.

[2] ينظر، حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مج4، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1991، ص111.

مكنت العربي من الاطلاع على مختلف العلوم والمعارف التراثية والحديثة، وفي مجالات لغوية متعددة، لأنها عملت على انفتاح العقل العربي على ثقافة الآخر ولغته وهويته.

2-المدارس والمعاهد:

وأولى هذه المدارس مدرسة الطب البشري، وهي من أقدم المدارس العالية بمصر أنشأها محمد علي سنة 1827، حيث استقدم لها العلماء الأجانب الذين تولوا مهمة التدريس فيها، مع ضرورة جلب مترجمين عرب (مغاربة، سوريين) وغيرهما ليتولوا هم الآخرون مهمة ترجمة الدروس للطلبة، إذ وفق هؤلاء في عقد الصلة بين اللغة العربية وعلوم الغرب الحديثة من جهة، وجنيت اللغة العربية من مجهودهم هذا مصطلحات حديثة، زادت بها ثروتها، واستقبلت بها حياة جديدة من جهة أخرى.

أما المدرسة الثانية تسمى (مدرسة الألسن)، أنشأها محمد علي كذلك سنة 1835، ففي آخر عهده أصبح مديرها "رفاعة الطهطاوي" ،ثم أعيدت المدرسة في عهد إسماعيل لتقوم بتدريس اللغات الشرقية والغربية والقانون، ولذلك سميت بمدرسة "الإدارة والألسن"، ثم تحولت إلى مدرسة للحقوق، ثم أعيد إنشاؤها في أواخر حكم إسماعيل، إلى أن تحولت بعده إلى قسم للترجمة، واتجهت اتجاهات جديدة، وأصبحت مدرسة لإعداد معلمي اللغة الانجليزية وتخريج المترجمين (فرنسي، انجليزي)، وكان ذلك بضمه كقسم عال للمدرسة التجهيزية، وسميت معا المدرسة الخديوية، إلى أن انشيء على أنقاض مدرسة الألسن ما يسمى بمدرسة المعلمين التوفيقية، وأصبحتا سنة 1922 ما يعرف بمدرسة المعلمين العليا.

فكل هذه المدارس لم تعمل جاهدة على ترجمة كثير من الكتب العلمية والأدبية والفنية، التي زادت من الثروة اللغوية وأغنى أساليبها وتعبيراتها فحسب، وإنما قادها إلى التفكير المنطقي السليم، الذي يعد سببا وعاملا في التمهيد للاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي[3].

3- الطباعة والصحافة:

و من بين العوامل التي كان لها أثر واضح في نشأة النقد العربي الحديث، نجد الطباعة التي كان « أثرها الواضح في تنشيط حركة البعث والتجديد، بما يسرت من نشر مصادر المعرفة قديمها وحديثها»[4]. إذ ظهرت مطابع كثيرة لم تكن معهودة إلا بعد حملة نابليون، فمنها اللاتينية والعربية واليونانية، حيث عملت على ثراء الساحة الأدبية، ولا سيما النقدية، وذلك بإعادة الروح العلمية للكتب القديمة، وصدور كثير من الدواوين الشعرية وغيرها، وبعد رحيل الفرنسيين الذين أسسوا مطبعة بولاق، جاء (محمد علي باشا) ليعيد فتح هذه المطبعة باسم: المطبعة الأميرية، إذ بقي دور المطبعة واضح في إحياء التراث القديم، وإخراج أمات الكتب مثل الأغاني، والعقد الفريد ... الخ، وكذلك تدعوا إلى تغذية حركة

---

[3] ينظر، عز الدين الأمين، عوامل نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، ص 49-51.

[4] بدوي طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1405ه/1985م، ص144.

التأليف، وإحياء الأدب القديمة من شعر متين ونثر رائق وكتب، وكذلك تسهيل طباعة المخطوط وتداوله[5].

و هذا وكان (للصحافة) دور بارز وأثر بالغ في نشأة النقد العربي الحديث، بعدها عاملا من عوامل النهضة ووسيلة أساسية في بعث الأدب العربي والعدول به عن مناهج الجامدين لمسايرة الحياة المتطورة والمتجددة، وفي تجدد المفاهيم الأدبية أو تطورها، تجدد النقد الأدبي وتطوره[6].

و عليه، يمكن أن نعد الطباعة والصحافة من العوامل الفعالة في ترقية الأدب ،فكلتاهما تعمل على إذاعته، إذ تغذيانه بكثير من ألوان العلم والمعرفة والأدب، قديمها وحديثها، وكان النقد الأدبي يتأثر بكل هذه العوامل وبهذا الأدب الجديد نفسه، لأن بعث الآداب القديمة والنهوض بالحياة الأدبية الحديثة أعان على خلق نقد أدبي جديد، لأنها هي من يسرت له السبيل للذيوع والانتشار، وتأتي الصحافة ثمرة من ثمرات المطبعة، إذ يبدو أثرها في اللغة والأدب والنقد، حينما أحيت اللغة وساعدت على نهضتها، وعلى شيوع كلماتها الفصيحة، وقربت بين لغة العلم والأدب وبين لغة التخاطب الدارجة، كما حمتها في عهد الاحتلال من سيطرة اللغات الأجنبية، ضف إلى ذلك نجد أن الصحافة شجعت في كل عهودها الأدب بفنونه المختلفة، وبذلت مجهودا جبارا للإعلاء به، مع تفاوت في ذلك بين صحيفة وأخرى، أو بين زمن وآخر، إذ تعد "الوقائع المصرية" أقدم صحيفة في الشرق العربي بأكمله ، كذلك نذكر صحيفة تدعى ب "روضة المدارس" أنشأها علي مبارك سنة 1870، وهي صحيفة رسمية تتمتع بمكانة ثقافية وأدبية عالية، نظرا لنهوضها باللغة العربية وإحياء آدابها، ونشر المعارف الحديثة.

كما نجد جريدة "مصر"[7] التي أصدرها "أديب إسحاق" وغيرها من الصحف التي كان لها اثر كبير في تغذية الساحة الأدبية والنقدية.

4- حركة الترجمة وغيرها:

إلى جانب الطباعة والصحافة تأتي الترجمة عاملا رئيسا من عوامل نشأة النقد الأدبي الحديث، إذ تعد القناة الرابطة بين اللغة العربية ومختلف الثقافات الأجنبية، ولعل هذا ما زاد في الثروة اللفظية والمصطلحية عن طريق ترجمة الكتب الفكرية والفلسفية والعلمية، التي من شأنها أن اقتضت النهضة أن تنقل كنوز الغرب إلى اللغة العربية فأسست في سنة 1836 مدرسة الإدارة والألسن، التي عهد بالإشراف عليها "رفاعة الطهطاوي"، فتاريخها مرتبط بنهضة الترجمة في عصر محمد علي وحلفائه، ثمرة جده وكده[8].

---

[5] ينظر،عماد علي الخطيب،في الأدب الحديث ونقده، عرض وتوثيق وتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط2، 1432ه/2011م، ص22.

[6] ينظر، بدوي طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، ص144 ،145.

[7] ينظر، عز الدين الأمين ،نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، ص94.

[8] ينظر: عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص30.

فمن المترجمين نذكر: محمد عثمان جلال، الذي ترجم كثيرا من الكتب والروايات المسرحية، كروايات موليير وراسين وغيرهما، وكذلك نجد خليفة محمود محمد أحمد عبد الرزاق، الذي ترجم كتاب «غاية الأدب في خلاصة تاريخ العرب» للمؤرخ الفرنسي (سيد يلو)[9].

هذه الترجمات وغيرها كانت عاملا أساسيا في خدمة اللغة العربية وشحن مقوماتها النقدية، حيث مثلت الأسس الهامة لنشأة النقد الحديث في مصر خاصة، والوطن العربي بصفة عامة «هي ليست إلا صورا أدبية جديدة ذات مقاييس وأوضاع طريفة يصح أن تحتذى في إنشاء الأدب العربي الحديث، إنها نقد عملي وتوجيه سديد»[10]. ينفتح فيه عن الآخر المحدث. هذا ناهيك عن البعثات العلمية التي برز أثرها في النهوض بالنقد، مما اتجه اتجاها جديدا استقطبه هؤلاء المبعوثون إلى الخارج، فما لبثوا أن نقلوا اتفاقاتهم الغربية وطبقوها على الأدب العربي.

إذ يعد هذا المزج بين الثقافات، الذي كانت فيه الدعوة إلى أدب حديث أولى الخطوات الفعالة في حياة النقد الحديث، « فما قام به رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك من نشاط علمي أو أدبي إنما هو صورة لما قام به غيرهما من أعضاء البعثات العائدين لبلادهم، حيث كان لهم الفضل جميعا في محاولة إحياء اللغة وجعلها مسايرة للعلم الحديث، وقد كان أثر البعثات واضحا في النقد عندما أعيد إرسالها، فأرسل أمثال أحمد ضيف وطه حسين وزكي مبارك، وذلك حين تأثرهم بمذاهب النقد الغربية واتجاهاته، مما أدى إلى تقوية أواصر الصلة الثقافية بين البلاد العربية (مصر) وأوروبا من حيث العلم والمعرفة والحضارة. فهذا الاطلاع والاحتكاك يعد النواة الأولى لهذا النقد الحديث .

كذلك نذكر حركة الاستشراق ودورها في نشأة النقد الحديث ،علما أن المستشرقين هم الذين أتقنوا اللغة العربية، فاتخذوا من هذا مطية وسبيلا للسفر في الذاكرة التراثية، فعملوا على التأريخ للأدب العربي من القديم إلى الحديث، فترى الأديب ينتهج منهج المستشرقين في دراسة الأدب ونقده، وما وصل إليه أدباؤنا من مكانة علمية مرموقة ربما ما كان لهم في ذلك إلا بتأثرهم بالمستشرقين، وذلك بالانسلاخ من المنهج القديم، والتأثر بما هو حديث ومحدث في سبيل الدراسات الأدبية والنقدية، فما قام به المستشرقون من نشر وترجمة وتأليف في الساحة الأدبية الغربية في الأدب العربي مثلما فعل ذلك طه حسين، الذي يعد من أهم المتأثرين بالمستشرقين لتأثره الواضح بمناهجهم ولا سيما أفكارهم ونظرياتهم[11].

كل هذه العوامل وغيرها تمثل تمهيدا سهّل السبيل وعبّد الطريق لنشأة الأدب الحديث ونقده، طرحت في مجملها حداثة في الخصائص وجدة في الأساليب، مما أكسب العمل الأدبي

---

(9) عز الدين الأمين، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، ص82.

(10) المرجع نفسه، ص82.

(11) ينظر، عز الدين الأمين، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، ص102.

قيما تعبيرية فذة استحدثت من خلالها مقاييس نقدية جديدة ينطلق منها الناقد في الكشف عن جماليات العمل، والإلمام بالأطر الفنية للنص.